كتب بالفرنسية

في المعترك العالمي (٢٠٠٩ ـ ٢٠١٢)

Dans la mêlée mondiale (2009-2012)

Hubert Védrine

Paris: Editions Fayard, 2012. 514 Pages.

يُعدّ هوبير فيدرين، المولود في سنة ١٩٤٧، من أبرز الشخصيات اليسارية الفرنسية؛ فهو اشتراكي الهوى، وكلمته كانت مسموعة لدى قصر الأليزيه في عهد الرئيس فرنسوا ميتران، وشغل مناصب سياسية عدة أبرزها وزارة الخارجية في حكومة ليونيل جوسبان زمن جاك شيراك، من سنة ١٩٩٧ إلى ٢٠٠٢. وهو صاحب مواقف جريئة، ومن أبرز أسماء "مبادرة تحالف الحضارات" التي أطلقتها الأمم المتحدة في سنة ٢٠٠٥.

وفيدرين كاتب ومحلل متميّز، تُرجم كثير من أعماله إلى اللغة العربية، ومنها: "فرنسا ومسار العولمة: حوار مع دومينيك مويزي"، ترجمة جبور الدويهي (بيروت: دار النهار، ٢٠٠١)؛ "استمرار التاريخ"، ترجمة جبور الدويهي (بيروت: دار النهار للنشر، ٢٠٠٧)؛ "أطلس العالم الشامل"، ترجمة أنطوان الهاشم (بيروت عويدات للنشر، ٢٠١٠)؛ "أطلس الأزمات والنزاعات"، ترجمة أنطوان الهاشم (بيروت: عويدات للنشر، ٢٠١١).

وفي سنة ٢٠١٢ صدر له بالفرنسية "في المعترك العالمي (٢٠٠٩ ـ ٢٠١٢)" (*Dans la mêlée mondiale, 2009-2012*)، وهو عبارة عن جردة بالمواقف والخطب والكتابات السياسية والفكرية والمقابلات الصحافية والإذاعية التي أجراها مع كبار الصحافيين، وتناولت تقريباً كل ما يجري على الساحة العالمية من أحداث، تعليقاً ورؤية مستقبلية: من العولمة إلى النظام الدولي الجديد وقيادة أميركا بإدارة باراك أوباما، والعلاقات الدولية في كوكب **معولم** متعدد الأقطاب وإمكان قيام حاكمية عالمية، والموقف من روسيا والصين، إلى المتوسط وأوروبا وقضايا التنمية المستدامة والوضع في أفريقيا وجيوبوليتيكا الطاقة، ودور فرنسا وسياستها الخارجية وموقعها الحالي، مروراً بالثورات العربية وقضية الديمقراطية والعلاقة بين الإسلام والغرب، وأحداث الشرق الأوسط الملتهبة، ولا سيما الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي الذي سنتوقف عنده ملياً كي نسبر رأي الدبلوماسي الفرنسي المحنك

فيه وفي مآله.

حال العالم

يرى فيدرين في تمهيده المؤرخ في سنة ٢٠١٢، أنه بعد انهيار الاتحاد السوفياتي في سنة ١٩٩١، لم يتحقق أمل العالم الغربي بقيام جماعة دولية مؤسسة على **عالمية** القيم والتوافق بشأن الديمقراطية واقتصاد السوق. فديمقراطيات السوق أضحت مكاناً لمنافسة واسعة ومستمرة، في **معترك** مضطرب بين أقطاب ودول وحكومات ومؤسسات مصرفية وبيوت مال ومنتجين ومستهلكين، أفراداً ووسائل إعلام، وفاعلين غير شرعيين، هذا إذا لم تكن بين **حضارات**.

إذاً، هناك توزع رهيب للأوراق الجيوبوليتكية: صعود عشرات الدول الناشئة، أي نهاية الاحتكار الغربي لإدارة شؤون العالم، وهذا المنحى سيتعاظم خلال العقود المقبلة. وفي الخلفية زيادة للسكان (بنحو ٩ أو ١٠ مليارات)، الأمر الذي يثير عدة مخاوف، ولا سيما على صعيد الغذاء، وثمة توقعات مُزعزِعة (مثل التوطن في الأراضي الزراعية) بيئية أو أمنية، ومشاكل في منطقة اليورو، وخلل في الديمقراطية في أوروبا وفي الولايات المتحدة الأميركية، نجد أعراضها الصارخة في التطرف والشطط الشعبوي.

وفي الواقع، فإن أوروبا تبدو متعثرة، وهي أكثر الذين أملوا بالعيش بسكينة في عالم "ما بعد مأسوي" (post-tragique)، لأنه "ما بعد تاريخي" (post-historique) و"ما بعد هوياتي" (post-identitaire). والزمن بالنسبة إلى أوروبا هو **زمن السراب**، كما يُعبّر وزير الخارجية الأسبق، وكل مظهر لتفوّق غربي ستكون الدول الناشئة حاضرة لمقارعته، نظرياً أو عملياً، اليوم أو غداً أو بعد غد، بدءاً بتعريف السلطة داخل المؤسسات الدولية، وصولاً إلى القيم، وإلى العالم **متعدد الأقطاب** الذي سيكون التنافس فيه شديداً.

يقتبس فيدرين من زبغنيو بريجنسكي وجون أشكروفت قولهما في سنة ٢٠٠٨: "لأول مرة في تاريخ العالم، تكون شعوب العالم كلها ناشطة سياسياً"، وبهذه الوتيرة، فإن هذا انقلاب غير مسبوق للتاريخ. لكن، يجب عدم نسيان الضعف في هذه الدول الناشئة والمعوّقات أمامها، كما أن هناك نزوعاً لتعظيم وحدتها وتناغمها، فهي تتكتل للاحتجاج على الغرب ونيل بعض المطالب، غير أن الخصومة بينها تبقى قوية. ويضرب الكاتب مثلاً هو الخصومة بين الصين والهند، وبين الصين وروسيا، وبين البرازيل والأرجنتين، وبين نيجيريا وجنوب أفريقيا.

بيد أنه ما زال للغربيين ميزات معتبرة: موقعهم المكتسب والموروث من التاريخ في جميع المؤسسات الدولية، وثروتهم الهائلة، وقوتهم الاقتصادية، إذ إنهم إلى اليوم يمثلون مع اليابان ٥٨٪ من الناتج العالمي، و٤٠٪ من التجارة الدولية، ولا تزال القدرة الأميركية على الإبداع والابتكار مستمرة، وقوتها في الانتشار لا نظير لها. وتنفق واشنطن على قواتها العسكرية ما يُعادل نصف الإنفاق العالمي، والقدرة الحربية لفرنسا وبريطانيا لا تزال حقيقية. وما هو واضح أن الغربيين لن يعودوا إلى موقعهم الوحيد الذي تسنّموه منذ عولمة القرن السادس عشر، ولن تسترجع أميركا وضعها في

سنة ١٩٤٥، أو ما كانت عليه في تسعينيات القرن العشرين المنصرم، أي وضع "القوة الفائقة" (hyper puissance).

وبصورة عامة، يُقدّر فيدرين أن توازن القوى بين أقطاب العالم لن يتوقف عن التأرجح والتقلب، وسيقود إلى فوضى استراتيجية بين قوتين كبيرتين هما أميركا والصين، فروسيا متقلصة مع أنها تملك إمكانات كبيرة، واليابان ضامرة لكن مرنة ومقاومة للضغوط، وثمة بلاد طموحة مثل الهند والبرازيل، وسيتعزز التعاون الدولي، إلاّ إنه يبقى ما دون **الحاكمية العالمية** التي يتمناها كثيرون. ويضاف إلى هذا أن التوق إلى الديمقراطية قوي في البلاد التي تفتقدها، وهي تتعرض للتعطيل حيث هي موجودة (امتناع من التصويت؛ دور المال؛ وزن مجموعات الضغط "اللوبي"؛ إلخ)، ويتم الاحتجاج عليها من أطراف شعبوية.

ويتوقع الوزير السياسي الاشتراكي أن تولّد موجة التغيير التي تجتاح العالم العربي منذ سقوط زين العابدين بن علي في تونس في سنة ٢٠١٠، سيرورات متناقضة من بلد إلى آخر (بداية دمقرطة؛ حروب أهلية؛ تعزيز الوضع القائم). وهذا التغيير الجاري، في نظره، لن يجعل العالم العربي، قبل وقت طويل، عالماً جديداً، أقل **غربنة**، وقطباً في عالم متعدد الأقطاب.

سياسة فرنسا الخارجية

حين طُرح على فيدرين في سنة ٢٠٠٩ سؤال عن **إمكان وجود سياسة خارجية فرنسية**، أجاب أنه ثمة خلط في فرنسا بين السياسة الخارجية والإشعاع الكوني (لويس السادس عشر؛ نابوليون؛ فرنسا "بلد حقوق الإنسان" والأدب؛ إلخ). فبلده لم يعد تلك القوة المركزية والأساسية في الإشعاع، ولم يعد منارة الكون، وإنما بات قوة **متوسطة**، وبالتالي لا أساس للادعاء في احتفاظه بسياسة خارجية خاصة به، فهو، وفي الحد الأدنى، يلتزم السياسة الخارجية لسبع وعشرين دولة أوروبية.

وفي مراجعته في سنة ٢٠١١، لحكم فرنسوا ميتران (بدأ في أيار / مايو ١٩٨١) الذي استمر ١٤ عاماً، أي بعد انقضاء ٣٠ عاماً، ولا سيما السياسة الخارجية، اعتبر فيدرين أن الرئيس الاشتراكي شارك الأميركيين رؤيتهم عن يوغوسلافيا ولبنان وإدارة الوحدة الألمانية، غير أنه اختلف معهم بشأن خط الأنابيب الروسي، والدولة الفلسطينية، وغورباتشيف، والاستراتيجيا النووية لحلف الأطلسي. وفي الشرق الأوسط ساند ميتران حق إسرائيل في أمنها، لكنه كان أول قائد غربي يتحدث عن دولة للفلسطينيين (خطابه في الكنيست في آذار / مارس ١٩٨٢)، الأمر الذي جلب له عداء اليمين الإسرائيلي، فلم يرجع إلى تل أبيب إلاّ في سنة ١٩٩٤، حين تولى يتسحاق رابين رئاسة الحكومة، وكان له علاقات جيدة مع القادة العرب. وعلى جميع المستويات، فإن ميتران ترك انطباعاً بامتلاكه ذكاء استراتيجياً وتكتيكياً، وفهماً تاريخياً للبلاد والمواقف، ورؤية وفعلاً، وقدرة ومقترحات.

الشرق الأوسط

فيما يتعلق بمستقبل العالم والسلام في الشرق الأوسط، أجاب فيدرين في سنة ٢٠٠٩، أن كل شيء

يرتبط بتطور الصراع بين أقطاب العالم المتعددين، وبالوصول إلى ما يُسمى **التنمية المستدامة**. والجيوبوليتيك يجعل مستقبل العالم مرتبط بالشرق الأوسط، فالمشكلات الحادة موجودة فيما أطلق عليه بريجنسكي **هلال الأزمة**، الذي يمتد من الشرق الأوسط إلى آسيا الوسطى، مروراً بأفغانستان وباكستان. ويجد فيدرين أن شجاعة الرئيس الأميركي باراك أوباما تكمن في أنه دخل مباشرة إلى صلب الموضوع، وقطع مع ادعاءات اليمين الإسرائيلي والأميركي منذ نحو ٢٠ عاماً، والتي تقول إن المسألة الفلسطينية **ثانوية**، ذلك بأن سيد البيت الأبيض يظن ألاّ إمكان لاستعادة **الزعامة** (leadership) في العالم، ولو نسبياً، من دون تجاوز الخصومة مع مليار و٣٠٠ مليون مسلم. ويُعلّق السياسي الفرنسي على خطاب أوباما في القاهرة، والذي أراد من خلاله مخاطبة العالم الإسلامي، فيراه عنصراً قوياً في مسار متكامل هو تتمة للسياسة التي ينتهجها في الشرق الأوسط: في العراق وإيران وأفغانستان وباكستان، ومجمل العالم الإسلامي، ويتوقع له وقعاً عند الرأي العام في المنطقة، لأن أوباما زعيم يولي الرأي العام هذا أهمية أكثر من صداقته مع الحكام، وهو يجيد مخاطبة الناس: فعل ذلك مع الجمهور الأميركي والتركي والعربي ـ الإسلامي، ويفكر، في الوقت نفسه، في الجمهور الإيراني، كما سيخاطب يوماً الجمهور الإسرائيلي الذي تميل أغلبيته، ومنذ أعوام، إلى قبول فكرة دولة فلسطينية.

وفي السياق نفسه، يسأله الصحافي في "النوفيل أوبسرفاتور" (*Le nouvel observateur*) في ٢٦ حزيران / يونيو ٢٠٠٩، عن تشدد البيت الأبيض في وجه الحكومة الإسرائيلية بشأن المستوطنات غير الشرعية، وكذلك إنشاء دولة فلسطينية، وهي أمور غير مسبوقة في تاريخ العلاقات الإسرائيلية ـ الأميركية، أي هل ستدفع تل أبيب ثمن المعطى الأميركي الجديد في الشرق الأوسط؟ يجيب فيدرين أنه، ومنذ سنة ١٩٦٧، كان هناك تعارض في إسرائيل بين أولئك الذين يعتقدون أنه يجب عدم التخلي مطلقاً عن الأراضي المحتلة، لأسباب اقتصادية أو دينية أو أمنية، وبين أولئك الذين يعتقدون أن الشعب اليهودي لم يؤسس دولة لممارسة سياسة احتلال لم تعد تتلاءم مع استراتيجيا أمنية، وأنه يوماً ما، يجب الإذعان للحل الذي يمر عبر خلق دولة فلسطينية. وهي خلاصة وصل إليها رابين واتجه نحوها شارون، ومنذ زمن والرأي العام الإسرائيلي مستعد للقبول بهذا الحل. لكن، حين يبرز شخص مثل يتسحاق رابين، فإن النظام السياسي الانتخابي يعوقه، من واقع الآثار المخربة للنظام الانتخابي القائم على **النسبية التامة** التي تسمح لأي مجموعة متطرفة بتعطيل كل شيء، أو ممارسة الابتزاز في الموضوعات كافة. وقد قال أولمرت في نهاية ولايته بوضوح: "منذ ٤٠ عاماً، ونحن نستخدم من دون كلل، جميع الحجج من أجل عدم تقديم أي تنازلات للفلسطينيين، وهذا، لم يعد ممكناً، ولا يمكن أن يستمر. يجب القبول بتنازلات على مستوى الأرض، بما فيها القدس." وحتى إيهود باراك،

وزير الدفاع آنذاك، قال أيضاً في لحظة صراحة: "لقد أخطأنا حين راهنا على حركة 'حماس' ضد منظمة التحرير الفلسطينية."

ويضيف فيدرين أن الإسرائيليين أوقعوا أنفسهم في شرك، فهم يعرفون أن الوضع بغيض بالنسبة إليهم على الصعيد الأمني، وشنيع بالنسبة إلى الفلسطينيين، ولا يمكنهم التخلص بمفردهم من هذا الشرك، والقوة القادرة التي يمكن أن تساعدهم هي أميركا. ويجد الكاتب نجاح اليمين الإسرائيلي في إرهاب الأوروبيين طويلاً أمراً مأسوياً، لأنهم امتنعوا من القيام بأي ضغط مفيد أو أي مبادرة، كما يعتبر مؤذياً اصطفاف السياسة الخارجية الأميركية زمن جورج بوش خلف هذا اليمين الإسرائيلي الذي لا أفق لديه إلاّ إدامة **الوضع القائم** (status quo). ولهذا عدّ فيدرين موقف أوباما شجاعاً وذكياً، اذ لم ينتظر ولايته الثانية كي يحاول حل هذه المسألة الخطرة، ويرى أن هناك بدايات تطور تجري داخل الجماعة اليهودية الأميركية وحتى الفرنسية، وفي وسط النخب اليهودية العالمية إزاء الصراع. وثمة توافق على القول: "نعم، يجب التحرك الآن، وطبعاً، بشرط ضمان أمن إسرائيل." وإذا ما نجح رئيس أميركا في أن يكون عراب حل عادل، فسيتمتع هو وبلده بمهابة عظيمة في العالم العربي – الإسلامي، وستستفيد أوروبا أيضاً، وهذا سيكون ضربة قاتلة للمتطرفين، وسيواجه عقبات كثيرة، لأنه في الأساس، كانت قوى كثيرة مرتاحة لسياسة بوش، ليس اليمين الإسرائيلي فحسب، بل النظام الإيراني وحركة "حماس" و"حزب الله" أيضاً، وكذلك المتطرفين من كل حدب وصوب الذين ازدهروا في وجه الغرب "المانوي" (تشبيهاً بمذهب "ماني"، من القرن الثالث الميلادي، القائل إن العالم يقوم على مبدأي النور والظلمة، أي الخير والشر)، كحجة ملائمة لدعاويهم. وفيدرين متفائل بأنه إذا ما اقتنع الإسرائيليون بضمان أمنهم أميركياً، فإنهم سيذهبون في التسوية قُدماً، بما فيها مسألة المستوطنات، حتى لو عارضت أقلية صغيرة منهم إخلائها.

نداء من أجل حل الدولتين

يقود فيدرين مجموعة أوروبية مكونة من مسؤولين سابقين على أعلى المستويات، وعلى صلة بمجموعة أميركية مماثلة، وتناضل من أجل السلام في الشرق الأوسط من خلال حل الدولتين، وهي تعبّر عن مواقفها باستمرار. وقد وجهت نداء من أجل حل في الشرق الأوسط في تموز / يوليو ٢٠١١، هذا نصه:

والسلطة الفلسطينية تستعد للطلب من الأمم المتحدة الاعتراف بدولة فلسطينية هذا الشهر في نيويورك. ونحن نعيد التشديد، كما سبق أن فعلنا في تموز/ يوليو المنصرم، على اقتناعنا بأن على الاتحاد الأوروبي ألاّ يعارض هذا الاعتراف، ونعتقد اليوم أن هذا الموعد يمكن أن يكون المناسبة لتقديم حل يستفيد منه الطرفين. وندعو أيضاً السلطات الإسرائيلية إلى ألاّ تتصرف سلبياً إزاء هذا الإجراء الفلسطيني، وندعو السلطات الفلسطينية إلى أن

تُظهر حسها بالمسؤولية، ومن الأولى أن تستكشف وسائل تحويله إلى سيرورة يمكن أن تخدم أيضاً مصالح إسرائيل. وعلى الدول الأوروبية اغتنام هذه الفرصة للاضطلاع بدور مفيد من هذا المنظار.

المتوسط، والإسلام، وانقلاب العالم العربي

دُعي فيدرين إلى بروكسل في ٩ تشرين الثاني / نوفمبر ٢٠٠٩ لإلقاء كلمة ختامية في لقاء نظمته جامعتا القديس لويس والكاثوليكية في لوفان، بشأن "الاتحاد من أجل المتوسط" ومستقبله بصفته مبادرة فرنسية.

وبعد أن عرض المسيرة الطويلة التي قطعها هذا الاتحاد، توقف عند العوائق والمشكلات، وفي مقدمها الوضع الجيوبوليتيكي في المنطقة الذي لا يسمح بالكلام عن **اتحاد** (أو وحدة)، فالصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي لم يُحل، والعلاقات التركية ـ القبرصية متوترة، والعلاقات بين الجزائر والمغرب لم تُطبَّع. كما أن الاستراتيجيا الجديدة للرئيس أوباما تذهب عكس رؤى المحافظين الجدد، لكنها لا تستطيع تحقيق المعجزات في وقت قصير، فضلاً عن الاستراتيجيات المتناقضة لكل دولة أو منظمة، في الشمال أو في الجنوب، الأمر الذي يولّد اضطراباً عاماً. ويرى الكاتب في نهاية ورقته أنه ليس وقت الندم على المقاربات الأُخرى الممكنة، أو الفرص الضائعة، وإنما هو وقت الخلاصات السياسية والعمل والإنجازات الملموسة من المؤسسات لاستجابة تطلعات السكان الذين أخذوا الإعلانات السياسية على محمل الجد، وقد نفد صبرهم.

وفي أيلول / سبتمبر ٢٠١٠ قدم فيدرين في السفارة القطرية في باريس، مداخلة بمناسبة إعلان "الدوحة عاصمة ثقافية"، ركز فيها على نقاش مقولة صدام الحضارات التي أطلقها هنتنغتون، وعلى الصلات بين الغرب والإسلام، وسعي المفكرين المسلمين لتقديم نمط آخر من الإسلام، نظير محمد أركون الذي يشجّع مشاريع كهذه داخل الإسلام والعالم العربي من أجل الذهاب أبعد من النص الحرفي. ويدعو فيدرين أيضاً إلى العمل داخل العالم اليهودي والإسرائيلي، إذ يوجد، في نظره، معسكر سلام "أهل للتقدير" يتجاوز نسبة ٦٠٪، لكن النظام الانتخابي يمنعه من أن يجد تعبيره السياسي، وقد أتى يتسحاق رابين من صفوفه.

وفي ١٧ كانون الثاني/ يناير ٢٠١١، قدّم فيدرين مداخلة عن "أي آفاق لفرنسا في المتوسط؟" أعاد التذكير فيها بالوضع المضطرب في الشرق الأوسط، وصعوبة تجاوز الأفق المسدود بسبب المواجهة السياسية بين الإسرائيليين أنفسهم، وصعوبة إضفاء صدقية كافية على الوضع الفلسطيني المنقسم أيضاً، والعاجز عن أن يأخذ على عاتقه عملية السلام المفترضة. ويكرر الكاتب اقتناعه بأن واشنطن وحدها هي القوة القادرة على التدخل في هذا الصراع، وقد فشل أوباما وفريقه بسبب مقاربتهم السيئة للموضوع، إذ ليس في قدرة رئيس أميركا أن يطلب من رئيس الحكومة الإسرائيلية وقف الاستيطان إن لم يكن

مستعداً لإجباره على ذلك، وهو لا يستطيع أن يعرّض الرصيد الأميركي للخطر بطلب لا يُستجاب له. وهذا الإخفاق مأسوي تماماً، لأنه لا يوجد اليوم أي رافعة بديلة، مهما يكن استعداد الجمهور الإسرائيلي المعبّر عنه باستطلاعات الرأي، ومهما يكن انفتاح العرب الذكي على مختلف الخطط المقترحة.

ويصف فيدرين الخطاب الأوروبي بشأن الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي بأنه "مثير للشفقة"، اذ تراوح بحسب خبرته ومتابعته، بين **الخانعين** (لا يمكن عمل شيء، والدليل أن الأميركيين لم يفعلوا شيئاً)، و**الخائفين** (الأميركيون يهتمون بالمسألة، ولا داعي لمضايقتهم، وبالتالي لا ضرورو لعمل شيء)، وأولئك الذين **يختفون تحت الطاولة** ما إن يوجه اليهم الإسرائيلي أدنى لوم، وهذا في نظر فيدرين، عيّنة من الجبن الأوروبي المعاصر. ويعتقد الكاتب أن الرأي العام الإسرائيلي، بحسب استطلاعات الرأي المتتالية، مستعد لحلول ممكنة، لكن الإسرائيليين، في الوقت نفسه، يصوتون لسياسيين يتبنّون الحلول المعارضة للسلام، فالوضع **مقفل** على هذا النحو.

وفي المحصلة يرى فيدرين العالم متعدد الأقطاب، تؤدي فيه الدول الناشئة دوراً كبيراً على الرغم من الخصومة والمنافسة مع الغرب، من جهة، ومع بعضها البعض، من جهة أخرى، وهو يرى مشروع أوروبا "الواحدة" متعثراً، والسلام في الشرق الأوسط بعيد المنال من دون حل الصراع الفلسطيني ـ الإسرائيلي على أساس الدولتين.

عفيف عثمان
باحث وكاتب لبناني

من منشورات مؤسسة الدراسات الفلسطينية

تاريخ فلسطين في طوابع البريد

مجموعة

نادر خيري الدين أبو الجبين

طبعة ثانية مزيدة ومحدثة

٤٩٣ صفحة ١٠٠ دولار